جامعة المنيا
MINIA UNIVERSITY

المؤتمر الدولي الخامس

كلية دار العلوم

إسهام العلماء المسلمين في الحضارة العالمية



١١-١٣ ربيع الأول ١٤٣٠ هـ
٨ - ١٠ مارس ٢٠٠٩ م

المجلد الرابع

بحوث علمية محكمة

كلية دار العلوم

MINIA UNIVERSITY

جامعة المنيا

المؤتمر الدولي الخامس

إسهام العلماء المسلمين في الحضارة العالمية

في الفترة من ٨: ١٠ مارس ٢٠٠٩م

تحت رعاية

السيد الأستاذ الدكتور/ هاني هــــلال

وزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي

السيد الأستاذ الدكتور/ ماهر جابر محمد

رئيس الجامعة

رئيس شرف المؤتمر

أ.د/ علي جمعـــة محمد

مفتي الديار المصرية

أمين عام المؤتمر

أ.د/ محمد عبد الرحمن الريحاني

رئيس المؤتمر

أ.د/ محمد عبد الرحيم محمـــد

المحتوى

إعادة النظر في نحو النص [١]

روبرت دي بوجراند

ترجمة

د. عبد المنعم السيد أحمد   د. أشرف عبد البديع عبد الكريم
كلية دار العلوم ـ جامعة المنيا   كلية دار العلوم ـ جامعة المنيا

ـ ثلاث خطوات في الحياة الوظيفية من " الجملة " :

عندما كنت متصلاً في البداية بعلم لغة النص كطالب في منتصف السبعينات من القرن العشرين، كان هذا المجال في حراك تدريجي لإيجاد هويته، نشأ مؤخراً تقليد مشار إليه في العمل الماضي في علم اللغة كعلم لغة الجملة. يمكن لي أن أعطي بقدر ما هذا المصطلح، حينما كان قد كُيّف من خلال البحث في الموضوع، ولا يزال قاصراً في مناهج اللغة. بينما يبدو حالياً علم لغة النص منتشراً (٢٠٠٠) على مواقع شبكة الإنترنت في (١٠ / ٢ / ٢٠٠١)، لكن يبدو علم لغة الجملة (لسانيات الجملة) في اثنين فقط، وواحد منهما بحث لي (بوجراند ١٩٩٣). ومما لا شك فيه أن كثيراً من اللغويين كانوا يعتبرون هذا المصطلح مجرد حشو؛ لأنهم كانوا مقتنعين تماماً أن الجملة هي الوحدة المهيمنة في البحث اللغوي.

فعند سوسير(١٩١٦ / ١٩٦٦، ١٢٤) " الجملة هي النموذج المثالي من التركيب. وعند سابير(١٩٢١، ٣٥) " الجملة هي وحدة الكلام الوظيفية العظمي. وعند بلومفيلد (١٩٣٣، ١٧٠) : الجملة هي تلك الصيغ اللغوية التي وجدت من خلال تنظيم نحوي ذي معني. وعند فيرث (١٩٥١ / ١٩٥، ص ١٧٠، ١٩٥٩ / ١٤٨:١٩٦٨) أن : معظم اللغويين يوافقون علي أن دراسة الجملة، كما في مسلماتنا الأولي، هي نظام اليوم وأن : الجملة تجد مكانة مركزية طبيعية في النظرية العامة. وعند تشومسكي (١٩٥٧، ١٣) : اللغة بدقة قائمة علي عدد محدود أو غير محدود من الجمل، فكل عدد محدود من الجمل في الطول قائم علي عدد محدود من العناصر.

---

(١) هذه ترجمة لمقال روبرت دي بوجراند R.De Beougrande المنشور في:
Logos and Language Special Issue 2001.

وكان فلاسفة اللغة أكثر توسعاً، ففتجنشتاين (١٩٢٢، ١٩٦٣، ٣٢) : أعلن أن مجموع الجمل هو اللغة. وفجلر (١٨٨٥،١٨١) أشار إلي أن : كل عناصر اللغة جمل في الأصل. وبطريقة مشابهة قدم فيرث في وقت لاحق (١٩٥٩ / ١٩٦٨، ١٤٨) : أن أصول كل الكلام معتبرة أصلاً بطبيعة الأحداث، وفي تاريخ الجنس الكائن في الجمل. ' ومع ذلك، فالإجماع علي المكانة المركزية للجملة، يبدو أنه لم يكن غير ظاهر من خلال الاختلافات المرسومة من خلال للمناهج اللغوية.

فالبحث الدقيق لكيفية أن المصطلح استخدم حديثاً في مناقشات اللغويين، سوف يكشف التباين للمقابل للمعاني النحوية والمعاني المعجمية (بوجرلند ١٩٩٩). فالمجال الذي لا يعرف مسلماته الأولي (Primary datum) بطريقة متماسكة، سيبدو متناقضاً، لكن لها قيمة استراتيجية مخولة / ممكنة للمجال / التخصص ليغير رؤاه للمشكلات اللغوية في محاذاة تتابع / تسلسل الخطوات الواضحة، عندما يستشهد بالجملة كضامن للاتصال والرسوخ.

من أهداف البحث الحالي، أنني سوف ألقي الضوء علي ثلاث من هذه الخطوات، الخطوة الأولي : علي الرغم أن اقتباس حالات مثل " النموذج المثالي من التركيب، كما عند دي سوسير (١٩١٦ / ١٩٦٦، ١٠٦) " لا يوافق علي امتلاك نظرية من الجمل " الواقعية للغة "؛ لأن مجمل الجمل التي يمكن أن تلفظ، ستكشف التباين الهائل، وبأية حال، هي لا تشبه بعضها بعضاً (١٩١٦ /١٩٦٦،١٠٦)، لذا اقترح دوسوسير أن تكون مخصصة بالكلام الفعلي (Parole)، وليس باللغة (Langue) (١٩١٦ / ١٩٦٦، ١٠٦) لكنه في الحقيقة ابتدع ثنائية من خلال تخصيصها بكل من الجانبين " لا يوجد في التركيب حد واضح بين الحقيقة اللغوية، التي هي علاقة في الاستعمال الجمعي، والحقيقة أنها تلائم وتعتمد علي الحرية الشخصية، في عدد كبير من الأمثلة ثابت في تركيب الوحدات، لأن كلتا القوتين مشكلة في إنتاجها، وهم ركبوها بانسجام / باتساق غير محدد " (١٩١٦ / ١٩٦٦، ١٢٤). اقترح هذه الثنائية لكي تكون صحيحة بقوة لكل من المادة اللغوية الشاملة للجمل؛ لكن دوسوسير عجز عن إدراكها كإعاقة ضخمة لتفريقه الشهير بين اللغة المعينة (Langue) و الكلام الفعلي (Parole) ليؤكد المادة اللغوية /

مادة اللغة؛ لذا فقد دشن تعاليم الخط المزدوج عند اللغويين الذين أعلنوا المزاوجة التي اكتشفوها، وأكدوا علي نظرية متمردة علي التطبيق.

ولذا واصل دوسوسير نفسه مراوغته، حين أعلن اتفاقاً مع لغوي اللغة فقط، بينما المادة المستعملة منتسبة إلي الكلام الفعلي؛ ليمثل وحدة (Unit) (١٩١٦ / ١٩٦٦، ٢٠).

الخطوة الثانية : كانت بطريقة ما علي النقيض الجدلي للمرحلة الأولي، وعكس ممارسته في مجال عمله، فقد رأى بلومفيلد " اللغوي اللساني " في " ملاحظة كل صيغ الكلام بغير تحيز " (١٩٣٢، ص ٢٢)، هذه الرؤية تعطيه تعريفاً للجملة كوجود ملاحظات، وبخاصة " الصيغة اللغوية " التي هي " متوحدة نطقياً "، و " لا تشمل أية صيغة لغوية أكبر " (١٩٣٣، ١٧٠، ١٧٩)[١]. علاوة علي ذلك، فإن هذا التعريف يمكن أن يزداد فعلياً بأي " اختلاف هائل " ليسع عدداً من الملفوظات النحوية التي ليست جملاً من خلال تعريفات أخري، بخاصة عندما نعمل بمادة / ببيانات موثقة، علي سبيل المثال.

(١) هل نحن هناك تقريباً ؟ إلبس تمكنت... في الماضي " هناك تقريباً " الملكة كررت : " لماذا، مررنا بها عشر دقائق في الماضي ! أسرع (من خلال النظر في الزجاج).

(٢) إنكم لا تعرفون كيف أن مثل هذه الحياة يحاول رجل مثل كورتز (Kurtz)، بكي كورتز المريد الأخير. "حسناً، وأنت ؟"، قلت : " أنا ! أنا ! أنا رجل بسيط " " اللورد جيم".

(٣) اعطني فكرة لأفهم أنك لا تكترث به. " له : أبداً، أبداً. " إيما (Emma).

(٤) فجأة اندفع بقوة نحو تنظيف الأرضية بالفرشاة، قال " هتاف يدل علي الانزعاج " ويُنفع بغرور "وأيضاً " هائج ربيع – التنظيف " (الريح في الصفصاف).

(٥) رجلي غضبان جداً، صاحت العجول (Phew) "هو يجب أن يكون أبيضاً "، " بالطبع هو يكون " هكذا قالت أنثي الثعلب " هتاف باشمئزاز " (كتاب الأدغال).

---

(١) هاليداي ١٩٦٧، ١٩٩٤، يمكن اليوم لنا أن نفهم هذا التعريف من خلال مجموعة النغم (Tone Group) (انظر ١٩٩٤ ، ١٩٦٧ Halliday)، لكن مفهوم بلومفيلد للغة بمصطلحات القطعيات (Segments) والمكونات (Constituents) يؤدي إلي مفهوم غير عملي، ذلك أن الظاهرة التنغيمية مثل درجة الصوت (Pitch) كانت توصف بمصطلحات " الوحدات الصوتية الثانوية Secondary Phonemes ، ١٩٣٣ , P. ١٠٧ ,

ومن بين الحقائق التي تضمنتها تعريف بلومفيلد تلك النتيجة الطبيعية التي تقتضي أنه ليس من الممكن ــ في حقيقة الأمر ــ أن نقرر ماهية الجملة حتى تسمعها تنطق. ومع ذلك فقد تمرد بلومفيلد علي تلك الحقيقة ونقض نفسه، حين أبدى اعتراضه الذي نص علي أن " عالم اللغة لا يستطيع أن ينتظر فرصة سماع مبني ما، جاء في صورة جملة لوقت غير محدد " (١٩٣٣، ١٧٩). ولقد بدا اعتراضه هذا واضحاً في استخدامه لمادة علمية مخترعة في فصله المعنون " أنواع الجمل ". ومن أمثلة تلك الجمل هذا المثال الشهير " هرب جون "، الذي ينم عن عدم الملاحظة أو المراقبة العلمية. هذا، ولقد وضّح بايك (١٩٤٥ – ٦٤ / ١٩٦٧، ٥٧١) أبعاد تلك المشكلة بشكل مفصل :

لقد تعامل المحللون في مجالات العمل الميداني التطبيقي لفترة طويلة مع " نصوص واضحة "؛ وهي تلك النصوص التي تُملي عليهم جملة جملة [....] أو تلك الجمل التي يكررها الراوية بشكل منفصل عن النص المتتابع الذي جاءت في إطاره. ومن منظور منهجي تعد هذه الطريقة ذات عون كبير ... ، غير أنها من الممكن أن تصبح قاتلة من المنظور النظري؛ وذلك لأنه من المحتمل أنه عندما يقصر المرء نفسه علي مادة علمية منتقاة؛ يكون بذلك قد بني نظرية في التركيب اللغوي، لن تنطبق علي اللغة المنطوقة الحقيقية.

ولذلك سعي بايك إلي إبدال : وضع الأولويات علي ثنائية القسمة بـ" تغييرات نظرية " تأكيداً منه علي وحدتها، وبدت مساعيه واضحة في " تجنبه وهجره للفارق الذي قدمه دي سوسير بين اللغة والكلام (١٩٦٧، ٣٥٨، ٥٣٦).

إن خطوتنا الثالثة، ربما تشبه التناقض الجدلي عند مقارنتها بالخطوتين السابقتين، لقد تجاوز تشومسكي (١٩٥٧، ٤٨، ٥٤) الرؤية القائلة بالتنوع الهائل في مجموع الجمل المنطوقة (دوسوسير)، من خلال ما قدمه من " نحو " يعيد صياغة علاقات المبني في الجمل المنطوقة عن طريق التركيبات، ويولد جملاً نحوية حقيقية "، وفي حقيقة الأمر، اعتمد تشومسكي في تأسيسه " للنحو التحويلي " بشكل مباشر علي فكرة تماثل الجمل وليس تنوعها. ومن هنا، اتجه نحو ذلك التماثل الذي من الممكن جداً أن تؤلف له " القواعد " التي تغير (وتشتق وتحوّل) تركيب جملة ما إلي تركيب آخر.

وهكذا حلَّ النموذج التوليدي محلَّ تقسيم سوسير الثنائي ما بين اللغة والكلام. فلقد استبدل تقسيم سوسير بآخر أكثر عقلانية ما بين الكفاءة، وهي معرفة المتحدث والسامع بلغتهم والأداء، وهو الاستخدام الفعلي في مواقف حقيقية (تشومسكي ١٩٦٥، ٤). هذا، ولقد قدم تشومسكي أيضاً تقسيماً آخر، ينطبق علي جملة بعينها، وذلك لأنها " الأساس الذي قام عليه النحو التحويلي " وهذا التقسيم ما بين " البني السطحية والعميقة " تبني علي أساس أن كلاً من تلك البني متميزة عن الأخرى بشكل عام " (١٩٦٥، ١٦). ولقد بدا هذا التقسيم مطمئناً من الناحية النظرية، غير أنه عند تطبيقه بدت مصاعبه جلية. وتزداد تلك المصاعب حدة، عندما لا يحتوي النحو بذاته علي إجراءات معينة، تمكننا من استنباط التركيب العميق لجملة ما (١٩٦٥، ١٤١). ولقد احتال تشومسكي (١٩٦٥، ١٨) علي تقسيمه الثنائي " البنية السطحية " و" البنية العميقة " " بما قدمه من " افتراض ساذج ومناقض للحقيقة بأن الخيط الضمني الأساسي هو الجملة ".

ومع ظهور تعريف لاينز (١٩٧٧، ٢٩) الذي بدا فيه التناقض لتعريف بلومفيلد واضحاً، ظهر علي الساحة اللغوية تقسيم ثنائي آخر بين " الجمل النظامية " و" الجمل النصية ". والجمل النظامية هي " وحدات نظرية تجريدية في أنموذج عالم اللغة عن النظام اللغوي " وهي : لا تبدو ــ أبداً ــ في صورة مخرجات السلوك اللغوي العادي، أما الجمل فتبدو أبداً في صورة مخرجات السلوك اللغوي العادي ". أما الجمل النصية فهي " مخرجات لغوية كلية أو جزئية، مكتوبة أو منطوقة، كاملة أو ناقصة ". ولقد لاحظ لاينز نفسه " الصعوبة المحتملــة والكامنـــــة في العلاقـــة " ما بين الاثنين، خاصة في المحادثات غير الرسمية " (١٩٧٧،٣٠). وهنا أيضاً يتم الاحتيال علي صعوبة تطبيق هذا التقسيم المطمئن شكلياً : وذلك بالافتراض الساذج الذي قدمه لاينز عن العلاقة الندية ما بين سلاسل الكلمات التي تنتج جملاً نظامية، وبما يحكم عليه المتحدثون الأصليون للغة بشكل بديهي بأنه ــ من منظور نحوي ــ جمل نصية كاملة (١٩٧٧، ٣٠).

لقد ألقيت الضوء علي هذه الخطوات الثلاث لأوضح كيف أن الأولوية المعطاة للجملة في علم اللغة الحديث، قد أسهمت في تشجيع تدبيرات الازدواجية والتناقض. وكانت أولي خطوات التناقض، هي أن تنحيها جانباً؛ لأنها تؤيد الحاجز المفترض ما بين اللغة

والكلام، إلا عندما " نوضح " اللغة بالكلام. والثانية أن نعرفها كوحدة ملحوظة فقط في الكلام، ثم نصف اللغة بمادة علمية، لم تلاحظ أو تراقب، بل اخترعت. والثالثة أن نعرفها علي أنها الوحدة المكونة للغة، ثم نقسمها إلي " عميق " و " سطحي "، وأن نتجاهل عملية المراقبة " تماماً، ومن هنا، نشأ ذلك التقسيم ما بين " الجمل النظامية " و " الجمل النصية ".

ولقد ثبت أن هذا التناقض أثر بشكل كبير علي علم اللغة، بدفعه للبحث عن اللغة في مكان آخر بجانب الكلام الملحوظ. فلقد أذعن سوسير (١٩١٦ / ١٩٦٦، ٩، ١١) عندما أكد علي أن " اللغة المنطوقة لا يمكن دراستها "، " لأننا لا نستطيع أن نكتشف وحدتها "، ولأنها مجرد " كتلة متغايرة الخواص من حقائق الكلام "، ويعزو سوسير نتيجة ذلك التنوع الهائل إلي الجمل. أما تشومسكي (١٩٦٥ : ٤، ٢٠١) فهو يؤكد موقفه العقلاني بزعمه أن استخدام اللغة المراقبة " من المؤكد أنه لا يستطيع أن يشكل موضوع علم اللغة، هذا إذا أردنا أن يصبح علم اللغة فرعاً مهماً من فروع المعرفة والدراسة "، وذلك لأن " كثيراً من الكلام الفعلي المراقب يتكون من شظايا وصياغات منحرفة من أشكال مباني متنوعة ".

إن هذه النزعات النظرية تتضمن نوعاً ملحوظاً ونادراً من انتقال العبارة أو نكبة العبارة (توم ١٩٧٢) : وذلك بوضع اللغة رهن الاستعمال المدمر الذي ينقلها من حالة الاستقرار والنظام المتكامل إلي حالة الاختلال وعدم الاستقرار والتفكك. والسؤال الذي لم أجد له إجابة قط هو : لماذا يجب أن يصبح الوضع كذلك ؟ وكيف يمكن أن يصبح كذلك؟، فلقد كان كل ما وجدته ذلك التنبأ الجماعي المطلق بأن علم اللغة مهماً جداً لاكتشاف النظام " العميق " أو " الضمني " للغة، وذلك بعزلها عن النظريات والمجردات وبعيداً عن السؤال الأشمل ألا وهو " لماذا يقول المتحدثون ما يقولون ؟ وكيف تستخدم اللغة في مجموعات اجتماعية عديدة ؟ وكيف يتم استخدامها في إجراء عمليات الاتصال ؟ " (دريشر / هورنشتين ١٩٧٦، ٨٢٣). أو أنه من المحتمل أن يطلق عليها المثالية، وتلك المثالية هي التي يؤكدون لنا أنها "حتمية " (لايونز ١٩٧٧، ٥٨٦)، وأنها الوسيلة الفعلية الوحيدة للتقدم بشكل عقلاني ". وتحت أي من تلك التصنيفات، نجد أنهم ينحون نحو مسايرة عملياتهم بمهارة حتى يجدوا في الجملة ما أطلق عليه سوسير " التركيب الرأسي المثالي؛

ألا وهو ذلك التركيب المنفصل شكلياً، المكتفي بذاته، حسن التكوين، المكتمل، وفوق كل ذلك نحوياً. ففي الممارسات الشائعة تتبع تلك العمليات تعبيرين أساسيين، ينتج عنهما شكلان من المادة العلمية الثانوية :

(١) يخترع اللغويون مادتهم العلمية التي تبدو منعزلة عما حولها مثل " ضرب الرجل الكرة " (تشومسكي ١٩٥٧، ٢٦). واقترح تسمية هذه المادة بالمادة العلمية غير الحقيقية.

(٢) يستبدل اللغويون المادة العلمية الطبيعية بمجموعة رموز اصطناعية، مثل : أ : (xV) [مكتب (×) ←── □ مبني (×)]؛ ب : (× V) [مبني ←── □ (y ⊐) (له (×، y) وشباك (y)] " (فان دايك ١٩٧٧، ١٠٠). هذه الرموز تشير إلى أن كل جزء من البيت له شباك وهذه المادة اقترح تسميتها بالمادة العلمية غير المألوفة.

وفي أغلب الأحوال يتبع التدبيران معـاً : وذلك باختراعـك للمـادة العلميـة أولاً (ضرب الرجل الكرة the man hit the ball)، وما يتبع ذلك من تحويلك لها إلى مجموعة الرموز: أداة + اسم + فعل + عبارة اسمية (تشومسكي ١٩٥٧، ٢٦). ومن الممكن أن تتخذ إجراءات مسبقة تجاه الاعتراضات المنهجية، عن طريق التحذير من "خطورة النظرة المتطرفة التي تنكر قبول الجملة البنائية " (برا ون / يول ١٩٨٤، ٢٠).

ولود أن أؤكد علي نقيض ما سبق ذكره : أن هذين التدبيرين معاً، هما الخطر الحقيقي، فكلاهما يضع عالم اللغة في ذلك الموضع المريب، حيث يختلق ويغيّر في شواهد اللغة، وبذلك يحدث مأزق حرج بالنسبة لتفويض غيره له بالخوض في أمور كهذه.

فعلي أي أساس يمكن أن تدعي مادة علمية كتلك التي تمثلها للغة، التي يمكننا ملاحظتها في المادة العلمية الحقيقية والمألوفة ؟ ولذلك لم يشرح سوسير في أي موضع كيفية توصل عالم اللغة لـ " اللغة " بدون أن يتصل " بالكلام ". وهو عندما نصح " عالم اللغة " أو دارسها " بالأخذ في الاعتبار كل أشكال التعبير اللغوي " و " ليس فقط الكلام الصحيح " بدا كأنما نسي تحذيراته من " التنوع " الذي ــ كما رأينا ــ كان السبب وراء مقولته بأنه " لا يمكن دراسة اللغة المنطوقة " (١٩١٦ / ١٩٦٦ : ٦). ولقد نصح

بلومفيلد اللغويين " بمراقبة جميع أشكال الكلام بموضوعية، ولكنه نظراً لكونه عالماً سلوكياً مخلصاً، أكد على عكس ما نادى به سوسير " أن عالم اللغة له وضع محظوظ : " فاللغة كنشاط اجتماعي يمكن قياس مبانيها بدقة بشكل لا يتاح لأي نشاط مجتمعي آخر" (١٩٣٣، ٢٢، ٣٧).

يتلخص " المنهج العام لممارسة اللغة " ــ بالنسبة لتشومسكي صاحب النظرة العقلانية الخالصة ــ في تطبيق " نموذج يستوعب النحو التوليدي " على " المادة العلمية الفعلية الخاصة بالأداء اللغوي " جنباً إلى جنب مع تقارير استبطانية لمتحدثي اللغة الأصليين أو لدارس اللغة الذي تعلمها " (١٩٦٥، ١٨). واللغوي من منظوره محظوظ لسبب آخر غير ما ساقه لنا بلومفيلد، وهذا السبب تحديداً هو أنه يسيطر بشكل أوتوماتيكي على " كمية ضخمة من المادة العلمية الموثوق فيها والمتعلقة بالحدس اللغوي للمتحدث الأصلي، الذي غالباً ما يكون الشخص نفسه "، وفي المقابل " يعد الاختبار الموضوعي للمادة العلمية أمراً ذا أهمية ضئيلة " (١٩٦٥، ٢٠). وبهذا يفترض أن اللغويين قد فوض لهم أن يؤدوا دور " المتحدث / السامع المثالي في مجتمع ناطق، تام التجانس، يعرف لغته بشكل تام " (١٩٦٥، ٣).

ولقد كان علم اللغة نفسه غامضاً إزاء تقرير ذلك التفويض، فبينما يقرر سوسير أنه " ليست هناك عملية معقدة مفترضة بالنسبة للمتحدث، كتلك التي يتبعها التحليلُ الواعي لعلماء النحو "، وأن حصيلة التصنيفات المنهجية الواعية التي يقوم بها النحاة " لابد أن تتجانس مع تداعيات المعاني ــ سواء أكانت تلك الحادثة في الوعي أم اللاوعي ــ التي تحدث أثناء عملية الكلام " (١٩٦٦، ١٦٧، ١٣٧)، بينما يشترط سوسير ذلك، ينكر تشومسكي ــ بدوره ــ أن " متحدث اللغة " الذي استوعب النحو التوليدي وأتقنه على وعي بالقواعد النحوية، أو حتى من الممكن أن يصبح واعياً بها، وأن " تعبيراته عن معرفته البديهية حتماً صحيحة و " ذلك لأن " تقارير المتحدث ووجهات نظره عن سلوكه وكفاءته من المحتمل أن يشوبها الخطأ " (١٩٦٥، ٨). وكما يبدو سيشكل اللغويون الفارق بما أعطوا من تدريب أكاديمي، ومن منزلة كبيرة اكتسبوها من قواهم الفوق بشرية المتعلقة بالاستبطان، هذا على الأقل فيما يتعلق " بالنحو ".

وتعليقاً علي هذا الموضوع اقترح أن تلك المراوغات والحيل مرتبطة بازدواجية الجملة التي أدركها سوسير، ولكنه لم يستطع تقديرها. فالجملة لا تنتمي كلية إلي اللغة ولا إلي الكلام. ولذلك، فإن محاولة إلصاقها بأي من هذين الجانبين ستولد شكلين متفاوتين للجمل (أو التركيبات أو الخيوط، أو أشباه الجمل، وهكذا) وهذين الشكلين ثبت أن العلاقة المتبادلة بينهما صعبة من الناحية النظرية. ولذلك نحن نقدم هذا " الافتراض الساذج " أنهما يدلان عن الشيء نفسه من قبل ومن بعد.

٢- من " نحو الجملة " إلي " نحو النص " :

لقد قادتنا الخطوات الثلاث في القسم الأول، بخصوص رؤية أن نحو الجملة من الممكن أن يدعي الكفاءة والصحة اللازمة لوصف كلي للغة ما. ولقد حققت هذه الرؤية مكانة القاعدة الأساسية في " النحو التوليدي "، التي أعلن واحد من أنصارها عن ذلك القول المأثور في محاضرة افتتاحية، وذلك القول هو : إن موضوع علم اللغة ليس اللغة، بل النحو " (سميث،١٩٨٣، ٤).

ولقد أصبح ذلك القول المأثور أكثر استدعاء للعجب؛ لأنه جعل من مفهوم "النحو" واحداً أكثر تجريداً وبعداً عما يعنيه مصطلح " اللغة " بالنسبة لمعظم الناس، ومن بين هؤلاء الذين يستخدمون لغاتهم بشكل ماهر جداً، حتى أنهم يصبحون الأقرب لمفهوم " المتحدثين المثاليين ".

ولقد سادت الرؤية نفسها في الوقت الذي نشأت فيه لسانيات النص. ولقد بدا أن المجال الجديد، قد بدأ عند بعض الأشخاص كوسيلة لحل مشاكل جوهرية معينة، نشأت فيما نسميه الآن بـــ " لسانيات الجملة ". ولقد أخبرتني العديد من المرجعيات العلمية التي قابلتها بأنه بحلول أواخر عام ١٩٧٦، كان المبرر الكلي للسانيات النص مبنياً علي إيجاد ظواهر تنتمي إلي " النحو " بشكل ما، ولا يمكن شرحها بناءً علي الجملة المفردة كأساس لها (ريزر ١٩٧٧، ١٧).

ولكن " نحو النص " كان يعتمد علي نحو نموذجي، أنه المصاحب لـــ " نحو الجملة " وذلك لأنه يتضمن مجموعة " قواعد " و " مزايا " تتم توسيعها حتى تتلاءم مع ما يؤهلها لعبور حدود الجملة. ويبدو " النص " في شكل " تسلسل من الجمل " في أقصي

مراحل تشابههما. وفي هذه الحالة سيحظى بوصف نحوي للجمل المشكلة له، بالإضافة إلى بعض الآليات التي تربطهم (مثلاً، فان دايك، ايوا، بتوفي، ريزر، ١٩٧٢). وحتى الآن يبدو هذا المبرر ذو إشكالية ملحة.

هذا، لأننا سنخاطر بتقييدنا للسانيات النص في وضع فرعي ومشكوك فيه، وبإحيائها ولو بمعنى سلبي على أكتاف لسانيات الجملة، وباستكشاف هوامشها وبقاياها. ولهذا يجب علينا أن يكون لنا رد فعل دفاعي عندما يجادل علماء لغة الجملة بمقولتهم إن " الحقائق اللغوية الجديرة بالذكر للنص من الممكن أن يعتني بها في إطار النظرية اللغوية الحالية، وأنه ليس هناك سبب يدعونا لتوقع إضافة نحو النص لأي شيء جديد" (داسكال / مارجليت ١٩٧٤، ٨٢) . علاوة على ذلك، " عندما نقبل شروطاً مسبقة معينة خاصة بنحو الجملة، ونقبل مقدماتها المنهجية، فإننا أيضاً نتسبب في إحداث المشكلات الأساسية المتعلقة بها، مثل : مفهوم علم الدلالة والأدوات التحويلية ووضع الخواص الدلالية والنحوية وصياغة إجراءات التحليل (ريزر،١٧،١٩٧٧ ترجمتي). وأريد أن أضيف أننا أيضاً بذلك نجعل من الجملة كتلة ثقيلة وغير مفحوصة، نعلم عنها فقط ما تنتجه من بقايا ونثريات، ونجهل محتوياتها الكاملة، ذلك لأنها غير منتظمة وغير مفهرسة.

وبعدما أدركت القضية مؤخراً، اتضح أن القضية المهمة، هي ما إذا كان النص سيخضع لنفس ما عانت منه الجملة من خطوات متناقضة أولاً. وكانت إجابة هذا السؤال قد تضمنها هيلمسليف (١٩٤٣ / ١٩٦٩، ١٧ ، ٣٩) عندما نصح " عالم اللغة النظري " بأن " يعد عدة الوصف والفهم لأي نص " وذلك " باستكشافه لخصائص معينة موجودة في كل الأشياء والموضوعات التي اتفق الناس على تسميتها باللغة " وبأن " يعرض لكل الموضوعات التي قدم لها في تعريفه نوعاً من التصور العام، ويعرض من خلاله كيفية التنبؤ بكل الحالات الممكن ورودها، ويشمل ذلك أيضاً " لغة ما تم تقديمها بعيداً عن أي نص مرتبط بها داخل لغته التي يصفها ". ومع ذلك، فقد اقترح أيضاً أن يعمل اللغوي في الاتجاه المعاكس، وذلك عن طريق " الابتداء من النص بوصفه نموذجاً للمادة العلمية " وموضع الاهتمام "، وأن ينتج ".وصفاً شاملاً ومتجانساً من خلال التحليل "(١٩٤٣ / ١٩٦٩، ١٢، ٢١، ١٦). بيد أن كلاً من هذين الإجرائين من الممكن أن نستشعر

غموضهما، إذا ما علمنا بالشرط المذهل، وهو أن " النظرية اللغوية لا يمكن ستحقق من صحتها (أي تأكيدها أو إبطالها) بمجرد الإشارة إلي أي نصوص أو لغات موجودة " (١٩٤٣ / ١٩٦٩، ١٨). ولم يشرح الكاتب أسباب قوله هذا .

ملحوظة : المنهج اللغوي الذي يبدأ بالتصور العام يسمي top - down علو سفلي، والذي يبدأ من النص يسمي bottom - up سفل علوي. ولكن يبدو أن الحجة الوحيدة التي يتعلل بها هي أن جميع النصوص من الممكن التنبأ بها وإدراكها في التصور العام مقدماً.

وبانتقالنا إلي العنصر الأخير من المناقشة الذي قدمه لايونز والمتعلق بالجمل، من المحتمل أننا سنصل إلي ما يسمي بـ " النص النظامي " و " النص النصي "، وعلي الرغم من أن هذين المصطلحين ليس من المحتمل أن يتم تقديمهما، فلقد قدم تقسيماً مشابهاً لهما متعلقاً بـ " مصطلح النص ليعرّف التكوين النظري الواقع تحت الخطاب " (فان دايك ١٩٧٧، ٣). وكما يبدو لنا، فإن من إحدى النتائج الفورية وغير المستقرة لذلك ـ والتي تضمن أن النص من خلالها سيصبح حسن التكوين ومن الممكن تفسيره ـ هي أن " نتجاهل إمكانية واحتمالية الحوار " بوصفه " تتابعاً لأقوال متحدثين مختلفين "، بينما نفترض أن مثل ذلك التتابع من المحتمل أيضاً أن يكون له تكوين نصي مشابه للمونولوج (الحديث لطرف واحد) (١٩٧٧، ٣)، ولكن هذا الافتراض الساذج يخلق عقبات أمام ملاحظة عينات المادة العلمية.

ولذا قُدّم " النحو " علي أنه " نظام لقواعد تحكم المبني والمعني والأفعال وبه الأشكال المجردة للأقوال ترتبط بكل من معني ووظيفة هذه المباني في سياقات اتصال، بعد تكوينها نظرياً (فان دايك ١٩٧٧، ٢) وكما أقره فان دايك، فإن هذه الدلالة الثلاثية الأجزاء، كانت معدة لتغطية الثالوث المألوف : التركيب والدلالة والبراجماتية. وظهر المعجم بشكل هامشي كوسيلة لـ " تحديد معاني التعبيرات (الكلمات والوحدات الصرفية (المورفيمات)، والعبارات (١٩٧٧، ٢).

لقد ظل نحو فان دايك مركزاً بشكل غير مُعلن علي الجملة، بينما تناول أيضاً " الجملة المركبة " و" الجملة المتتالية ". ولقد شجع هذا التدبير ـ من المحتمل ـ علي ما

اقترحه فان دايك نفسه من قبل : دمج " علم الدلالة النظري " مع " علم المنطق المساعد "، ولقد أدي ذلك إلي ظهور تقسيم ثنائي جديد، هذه المرة ما بين " الجمل المساعدة " و" الجمل غير المساعدة " (١٩٧٧، ٣١). ولذلك ليس من المدهش أن كل المادة العلمية ـ ماعدا مقتطفات قصيرة وقليلة من نوعية قصص الجرائم التي يكتبها ميلز وبون، ومقتطفات قصيرة من روايتي دي كامبرون، ودبلنرز ـ كانت إما غير حقيقية أو غير مألوفة، ولكن كل المادة العلمية المألوفة كانت صحيحة نحوياً من منظور عادي.

ما هو الشكل الحقيقي لـ " النص النظري المجرد "، فيما عدا أنه مجموعة متتالية من الجمل التركيبية ؟ هذا السؤال لم أجد له إجابة محددة في أي عمل من أعمال اللغويين الذين دافعوا عنه وأيدوه (والذي لم يعد فان دايك ذاته يدافع عنه الآن) (فان دايك / كنتش ١٩٨٣).

وبالتدريج اتخذت لسانيات النص سبيلاً جديداً استطاعت من خلاله إثبات أن النص وحدة ذات طابع مختلف عن الجملة، وذلك الطابع ليس نحوياً فقط بل معرفياً وتفاعلياً أيضاً. ووفقاً لذلك تحول توجه البحث من نحو النص إلي النصية، وقامت علي الأقل بعض المصادر بتقديم مفهوم الحبك كفئة أساسية تندرج تحتها كل القضايا التي كانت تصنف من ذي قبل علي أنها " نحوية " أو " تركيبية " علي سبيل المثال : دي بوجراند / درسلر ١٩٨١. وهناك تحولت الجملة إلي وضعها المعتاد كنمط نحوي غالب للنصوص المكتوبة بعناية (هاليداي، ١٩٨٥، ١٩٢).

ولقد تم طرح القواسم القديمة ما بين اللغة والكلام أو الكفاءة والأداء لصالح النظام الخائلي، والنظام الواقعي؛ وذلك تم استلهامه مما تبقي من مفهوم " الواقع الخائلي"، غير أننا نفضل استخدام مصطلح النظام الكامن هذه الأيام (بوجراند تحت الإعداد). فبعيداً عن التقسيم الضمني ما بين النظام والاختزال في تراث سوسير وتشومسكي، أكدنا علي مبدأ أن نوعي النظام يجب أن يحظى كل منهما بشكل منظم خاص به، حيث تعمل تصميمات كل منهما علي دعم وإرشاد الآخر داخل الدائرة الجدلية (بوجراند ٢٠٠٠ ، ٩).

وعلاوة علي ذلك، ندرك أن الأنظمة التحتية الوسيطة مثل : الأسلوب، نوع النص، ومجال الخطاب تضمن أن إنتاج وتلقي النصوص لا يتضمن إدراج المعرفة الكلية

أطراف الحديث باللغة (التي بدا أن مفهوم تشومسكي عن الكفاءة تضمنها) (انظر الآن كينش، ١٩٩٨). ومن الممكن تخيل هذه الأنظمة التحتية في صورة أنظمة تشغيل عالية المستوي داخل كمبيوتر عال القوة، حيث ينتج عن تفاعل المقيدات الصغيرة كميات هائلة من البيانات. وهنا أري أن هناك تشابهاً لغوياً ما بين هذه العملية وبين ما يعرف بتأثير والتـز، الذي تنبأت به منذ سنوات عديدة (دي بوجراند ١٩٨٠، ١٩٩٤م) فلقد اكتشف والتز، الذي تنبأت به منذ سنوات عديدة (دي بوجراند ١٩٨٠، ٢٩٤). فلقد اكتشف والتز أن مجرد التفاعل بين المقيدات الموجودة علي أشكال الأجسام المرئية يقلل عدد التفسيرات الممكنة للرؤوس من البلايين إلي الآلاف.

وعلي الرغم من ذلك، يساهم عنصر نوع النص في خلق مشكلة كبيرة فيما يتعلق بالعلاقة بين اللغة والنص، فبعيداً عن قلة من النصوص ذات الأنواع المعروفة مثل " النعي "، " النشرة الجوية "، أو " منزل للبيع "، لا تزال تبدو خيارات الانتقاء والتركيب متضمنة بعض أشكال " التنوع " و " تغاير الخواص "، مثل تلك التي روعت سوسير. بل إن بعض الأنواع تختلط فيما بينها. فالعينة [٦] تختلط بحدة مع خطابات الوقار (مرح، العلم الماضي) والعلوم الاجتماعية (العصرية، المحلي، الهوية، التطور الاقتصادي الاجتماعي)، والسياحة (القديمة، الجمال الدائم والبساطة، وأساليب الحياة) جنباً إلي جنب مع الخروج عن المألوف في الإطار المعتاد (لمحة شديدة الخصوصية). إن هذا المزيج أو الخليط يعكس عدة أهداف، مثل إخفاء شرطي سياحة في موقع حضاري، بينما تتملق مطالب القراء بتواجد نوعية مثقفة من الإنجليز هنا في دول الخليج العربي.

(٦) الزفاف هو وقت للمرح ومناسبة ملائمة لاستعراض التقاليد القديمة في عصر تأكل العصرية مناحي مهمة من الأعوام الماضية. إن هذه اللمحة الشديدة الخصوصية للمنطقة العربية مثلت للمرة الثانية في حفل زفاف للسكان المحليين، والذي انعكس فيه الجمال الدائم والبساطة في أساليب الحياة العربية والعادات والهوية الفريدة من نوعها، التي استمرت حتى الازدهار الاقتصادي الذي أحدثه البترول في السبعينيات من القرن الماضي، الذي أحدث تطوراً مفاجئاً في المناحي الاقتصادية الاجتماعية (الأوقات

الخليجية). وبعيداً عن الاستسلام الذي ألم بسوسير، نطالب " بضرورة دراسة الكلام " وبدراسة كميات تكفي إقامة الدليل علي طرفي النقيض : التماثل والتجانس.

٣- نحو النص في المدونة اللغوية الكبرى :

إن هذا المطلب يبدو الآن أكثر واقعية من ذلك الوقت الذي ظهرت فيه كتاباتي. فاليوم تبدو اللسانيات، كأنما وقع عليها الاختيار لإحداث " بؤرة علمية " أو " تحول نموذجي "، وذلك بسبب البحوث التي استخدمت فيها مدونات لغوية (بوجراند ٢٠٠٠). والسبب وراء ذلك واضح، فمع إتاحة عينات كبيرة من المادة العلمية الحقيقية وإخضاعها لعدة أنماط من البحث علي مدي طويل، سينفك أي تقسيم ثنائي ما بين اللغة والنص، أياً كان لقبه : اللغة والكلام، الكفاءة والأداء، التركيب العميق والتركيب السطحي، وما إلي ذلك ... وما سنراه الآن ــ بدلاً عما كان من ذي قبل ــ هي تلك الاستمراريـــة المتدرجـــة لمفهوم الدقة اللغوية ما بين الاختيارات والتكوينات " الكثيرة الشبه باللغة " والأقل دقـــة (مثل فئات الكلام التي تظهر بين الأداة والاسم المتعلق بها في الإنجليزية)، وتلك الكثيرة الشبه بالنص " والأكثر دقة (مثل الاسم العائد علي ضمير المتكلم الجمع المستخدم في التاريخ الإليزابيثي، مقارنة بنظيره في النثر الأكاديمي الحديث).

علاوة علي ذلك، يجب أن تساعدنا المدونة اللغوية ــ إذا ما تم تحليلها كما ينبغي ــ علي التحديد القطعي لمكان فئة ما علي المقياس اللغوي. ويمكننا التنبؤ بشكلٍ مؤقت أن النحو أقل دقة، وأن المعجم أكثر دقة، ولكن كلا منهما مقياس داخلي للدقة اللغوية.

إنه ليس من الممكن وضع المدونة اللغوية علي أي جانب من ذلك المقياس، وهذا يرجع بالضرورة إلي دوام اختلافها التام عن اللغة، الذي يبدو في هاتين الناحيتين:

(١) **من الناحية النظرية**، سيكون هناك دائماً تلك النصوص الكامنة التي لم تصبح نصوصاً ظاهرة بعد، غير أنها ــ مما لا شك فيه ــ تمثل شواهد حقيقية من اللغة.

(٢) **من الناحية العملية**، لا تظهر كل النصوص الظاهرة في المدونة اللغوية. وهناك أيضاً محورا لاختلاف آخران ما بين المدونة اللغوية والنص وهما :

١ــ من الناحية النظرية تظهر ببعض النصوص اختيارات ما تتجسد في نصوص مشابهة للنص الأصلي، الذي لم تتجسد فيه تلك الاختيارات بعينها.

٢ـ من الناحية العملية، بعض النصوص تبني علي نية الترابط الفعال بينها وبين نصوص أخري، خاصة تلك التي تتعلق بالمحادثة الحوارية نفسها.

ولا يمكن اعتبار النص النظامي نظيراً للنص الظاهر بناءً علي كون الأول " وحدة نظرية مجردة " وهي التي (إعادة صياغة للاينز) توجد فقط في " نموذج الذي شكاله اللغوي عن نظام اللغة " والذي لا يظهر أبداً في صورة مخرجات السلوك اللغوي العادي. وبما أننا قد عرفنا النص على أنه وسيلة اتصال، فإن ظهوره ــ وليس المواصفات النظرية النحوية ــ هو المحدد لمكانته. والسؤال : لماذا لا تظهر بعض النصوص؟ هو سؤال نحوي ولا يمكن أن يثمر عن شئ حتى يتم فحص مقادير كبيرة من النصوص الظاهرة فعلياً.

إن مفهومنا الأساسي الآن هو التناص، ويشير هذا المفهوم إلي مجموعة النصوص الحقيقية المألوفة التي اكتسبت هاتين الصفتين بفضل ظهورها المبرهن عليه. ونظراً لاتساع ومرونة التناص ذاته يجب أن يكون مفهومنا عنه له الخاصيتان نفسيهما. أضف إلي تلك مفهوم : التناص الذي اكتشف بالكاد مع بدايات لسانيات النص (برجراند / درسلر ١٩٨١) الذي أصبح اليوم مفهوماً أساسياً في مجالات لغويات النص والعلاماتية والنظرية الأدبية. (راجع النت صفحات ٦٣٦، ٦، وعن المصطلح: انظر صفحات الويب في ١٠، ٢ / ٢٠٠١).

والاستخدام الشائع لمصطلح ما لا يعني بالضرورة أن هناك إجماعاً علي معناه، كالذي رأيناه في الجزء الأول عن " الجملة ". وكما يبدو يجب أن تشترك النصوص المشكلة للتناص فيما بينها في مصادر اللغة وخاصة النحوية منها. ولكن كيف تتم تلك المشاركة وإلي أي حد ؟ إن المناقشات النظرية المجردة العلو سفلية التي أحاطت بالجملة لن تستطيع تحديد إجابة هذا السؤال . ولذلك سنحتاج إلي الكثير من الأبحاث السفل علوية، وإلي تحليل لمجموعات من المادة العلمية، وإلي عقل منفتح تماماً إزاء وسائل ونتائج ملاحظاتنا. هذا بالإضافة إلي معارضة التقسيمات الثنائية التي تعيق وصف المادة العلمية الحقيقية وتضطرنا إلي التحايل عن طريق " الافتراضات الساذجة " مثل تلك التي أشرت إليها من قبل. إن افتراضنا الساذج بأن مجموعة النصوص الحقيقية التي نستطيع أن نشرها ونقدمها إلي برنامج توافقي تمثل اقتراب معقول من التناص، وسذاجته تكمن في

[illegible]

[illegible] Thesis [illegible] antithesis [illegible] synthesis [illegible]

[illegible]

اللفظي، وبذلك يتحول اهتمامنا مما هو نحوي أو غير نحوي إلي ما هو مقترن نحوياً أو لفظياً أو غير مقترن.

ربما تساعدنا هذه المفاهيم في التفريق بين المادة العلمية الحقيقية وغير الحقيقية، وهنا نعرض لثلاث عينات من المناقشات اللغوية التي تهدف إلي توضيح مفهوم " الجملة النحوية في الإنجليزية ".

٧- ضرب الرجل الكرة.

٨- جون تواق إلي أن يرضي.

٩- جلست القطة علي الحصير.

في يوليو ١٩٩٤ قمت بتقديم هذه المادة الاقترانات اللفظية الأساسية الخاصة بها إلي بنك اللغة الإنجليزية القائم في جامعة بريمنهام، التي كانت أكبر مدونات العالم حجماً في ذلك الحين بما يعادل ٢٢٤ مليون كلمة مستخرجة من نصوص حقيقية. ولكن لم يتم قبول هذه المادة، هذا علي الرغم من أنها كانت نحوية ومعقولة (مقبولة، ومترابطة، إلي آخره). والسبب وراء ذلك، أنها كانت غير حقيقية : منعزلة، ومغلقة، وبالية، وفارغة. فالتكوين " ضرب + الرجل + الكرة " (١٠) ربما يُقال من أب لابنه. وتلك المتعلقة بـــ " تواق إلي أن يرضي " رُصدت لها ثلاثة شواهـــد [١١ ــ ١٣]، في كل منهم مفعول به مباشر للفعل " يُرضي "، وهو ما كان ينقص المادة رقم (٨)، هذا فضلاً عن اقترانهم بفواعل أكثر أهمية من صديقنا القديم " جون ". أما عن المادة " جلست القطة علي الحصير "، فلقد ثبت أن جميع الشواهد التي تم رصدها لها منشأها الكتب المدرسية ومناظرات علماء المنطق [١٤ ــ ١٥]، هذا فضلاً عن كونها غير مرتبطة بأية قطة حقيقية. وبالتالي نتبين أن المادة [٧، ٨، ٩] ما هي إلا مقتطفات حقيقية من مادة علمية غير حقيقية، ظهرت في ثنايا خطاب Discourse يزعم أنه يشرح اللغة في صورتها المجردة.

(١٠) لم يضرب ذلك الرجل الكرة بشدة ؟

(١١) مسئول في الحكومة تواق إلي أن يرضي معبودة الثروة.

(١٢) الحكومة الساندينستية تواقة إلي أن ترضي الكنيسة.

(١٣) أرنا طفلاً اجتماعيا يتوق إلي أن يرضي ويسحر من حوله.

(١٤) توجد في الصفحة الأولي رسمة لقطة رمادية موشحة بخطوط داكنة تجلس علي حصيرة معروفة، إن الشاهد الأصلي " قطة علي حصير " يُستشهد به الآن في إطار السخرية من طرق التدريس العتيقة ".

(١٥) الجمل الخبرية المتعلقة بالأشياء المادية ــ " هناك قطة علي الحصير " ــ الجمل الخبرية عن شخوص الروايات، الجمل الخبرية الحسابية.

إن نحو النص المستند إلي مدونة لغوية، لن يخترع مادة علمية مطلقاً؛ لأن الحدس اللغوي لعالم اللغة ــ علي العكس مما سبق آنفاً ــ لا ينتج عنه " مادة علمية موثوق فيها " بأية حال من الأحوال. فالحدس ذاته عملية ظاهرية النفعية : فقد يبدو لنا أننا يمكننا الاعتماد عليه في تقييم المادة العلمية الكائنة أمامنا وتفسيرها، ولكننا لا يمكننا أن نعتمد عليه في إنتاج مادة علمية حقيقية، ولم يعد لدينا الآن ما يدفعنا للاعتماد عليه، وذلك بفضل الكميات الضخمة من المادة العلمية التي أصبحت في متناول اليد (أو رهن ضغطة علي أزرار فأرة الكمبيوتر).

ومن الممكن أن يعمق مفهوم الاقتران النحوي، إذا ما قمنا بعملية فحص دقيقة للخيارات النحوية القائمة بين الانتقاء والتركيب، كتلك التي تصدى لها كتاب كولينز للنحو الإنجليزي (الذي أسس علي مدون لغوية بنكية قوامها ٢٠ مليون كلمة)، والذي أشار إلي أن اقتران أداة التعريف " أل " بالصفة يتيح لنا الإشارة إلي مجموعات الأشخاص التي تشترك في تلك الصفة، " ويسري هذا علي كل الصفات" (سينكلير وآخرون ١٩٩١،٢١). وعندما وصلت البنكية الإنجليزية إلي حد الـ ٣٣٦ مليون كلمة، قرر سينكلير (١٩٩٨ : ٨١) أن التعساء من البشر تحديداً هم متلقو هذا الاقتران، مثل أولئك " الكبار "، و " المصابين "، و " العاطلين "، و " المرضي "، و " المسنين "، و " معدومي القيمة "، و " الفقراء "، و " المعاقين ذهنياً ". هذا فضلاً عن ازدواج من الصفات المتضادة مثل : الغني والفقير، والصغير والكبير، و المتعلمين والجهلاء، ولكن تلك الصفات الإيجابية، لا تستخدم بمفردها كثيراً ودورها هو إبراز معاناة الناس فقط.

وفي مدونتي اللغوية عن الكتاب البريطانيين والأمريكيين في الفترة ما بين ١٧٥٠ و ١٩٢٠، التي وصلت إلي ١٥ مليون كلمة، وجدت أزواجاً من الصفات المتضادة؛ كتلك

التي أشار إليها سينكلير (١٦ – ١٧). ولكنني وجدت أيضاً شواهد أخري استخدمت فيها صفات إيجابية بمفردها، ولكنها استخدمت في سياق ساخر، تدل علي أن هؤلاء السعداء أيضاً غير آمنين علي سعادتهم تلك [١٨ – ١٩].

(١٦) ابتسم للبُسطاء وآكل مع الفقراء ؟ [......] دعني ابتسم للعقلاء وآكل مع الأغنياء (حياة ساموبل جونسون).

(١٧) لا يعرف أحد منا التعساء، والسعداء لا يعرفون أنفسهم (كتاب ريتشارد الفقير).

(١٨) هناك دوماً بعض الظروف الطاحنة التي تنزل بالمستبدين والأقوياء والأغنياء والمحظوظين إلي الهاوية نفسها التي يقبع بها الآخرون (مقالات إميرسون).

(١٩) يري المتعلمون خطراً دائماً في تقدمه [الرجل الأسود] للأمام (أرواح سوداء).

وهكذا ربما نكون قد استطعنا أن نري الإبداع المتزايد والوعي الأسلوبي بالخطاب الأدبي.

ففي ذلك الخطاب ـــ مثلاً ـــ تستخدم بعض الأفعال بشكل كبير في المبني للمعلـــوم (مثل الفعل elude)، أو في المبني للمجهول فقط (مثل الفعل construe) (هذا بناء علي ما قرره قاموس كولينز للغة الإنجليزية ٣٠٢، ٤٥٨) لأنها في ذلك الوقت ستكون نحوية أيضاً، ولكن تلك الحالات غير مرجحة الحدوث، ففي مدونتي اللغوية عن الكتاب البريطانيين والأمريكيين، وجدت أن استخدامين فقط من أربعة وسبعين استخداما للفعل elude جاءوا في المبني للمجهول :

(٢٠) إنهم يقللون من معدلات الاستهلاك، لقد تَقلَّصَ is eluded من المال المستحق عليهم وكان إنتاجهم لذلك المال ليس كبيرا (اليكسندر هاميلتون).

(٢١) لن يُلاحَظ would not be eluded إزعاجي بعد الآن (تشارلز بروكتون براون)

ومن ناحية أخري، وجدت أن (٢١) استخداماً من (٥٩) للفعل construe ، استعملت في المبني للمعلوم. وذلك للدلالة علي تلك المعاني " يفُسر " [٢٢] ، " يترجم " [٢٣]، " يؤوِّل " [٢٤].

(٢٢) لقد فسرت construed السيدة الطيبة هذا السلوك من ابنة أخيها علي أنه قطع تام في العلاقات الودية (توم جونز).

(٢٣) لقد تنكر وجه ذلك القسيس الشمالي العنيف الذي علمه أن يترجم construe تجولات أوفيد إلي لغة إنجليزية سلسة (صورة الفنان).

(٢٤) إنها إنسانية سريعة الصياح وعصبية، لقد أولت construed حلمها علي أنه شبح (جان آير). تلك النتائج ربما تعكس الأبعاد التاريخية لظاهرة الاقتران النحوي.

وانتقالا من الاقتران النحوي إلي الاقتران اللفظي، يمكننا دراسة اختيارات الفعل لفئات معينة من الفاعل والمفعول به. فالفعل warrent مثلاً، تم رصده في ٣٩٢ سطراً من المادة العلمية الخاصة بالبنكية الإنجليزية (التي وصلت إلي معدل ٢٢٦ مليون كلمة في ذلك الوقت). ولكنني قمت بنفسي بفرز ٢٢٨ سطراً منها ــ لكي أجعلها أكثر دقة ــ وذلك عن طريق حذف المتكرر منها، مثل البيانات السياسية المتناقلة في عدة وسائل إعلامية، والإرجاع غير المتعمد للكلمة الأساسية في صورة اسم (وهو إنذار كاذب ينفذه القرص المرن في برامج الكمبيوتر). وكان نتيجة كل هذا، أن وجدت ٢٢٤ سطراً، اقترن فيهم ذلك الفعل بالفاعل الغائب، وأربعة أسطر فقط، اقترن فيها بالفاعل المتكلم، ولم أجد أية أسطر، اقترن فيها الفعل بالفاعل المخاطب. وفيما يتعلق باقتران الفعل مع الفاعل الغائب، وجدت مقداراً ضئيلاً من الفاعل المتخذ صورة الضمير كما يلي: هو (٦ سطور)، هي (صفر)، هم (٥ سطور)، وهو / هي لغير العاقل (٧ سطور). وقد ساهمت تلك المادة في توضيح أن ذلك الفعل لا يستخدم أبداً مع الأشخاص، إلا إذا دل علي اعتقادك في شيء لا تملك الدليل عليه كما في :

(٢٥) تبدو التربة نظيفة بعد حرثها، ولكنني سأثبت 'll warrant لك أنها تعج بالدودة السلكية التي تقتات بجذور النباتات.

ومن ناحية أخري، يتواجد الفعل بشكل رئيسي في السياقات الحضارية لحدث ــ أو حالة ما ــ يحمل مدلولاً سلبياً؛ ليبين إذا ما كان ذلك الحدث أو تلك الحالة يسوغان warrant أو لا يسوغان رد فعل ما، كما في :

(٢٦) ربما يجيز warrant سجله التأديبي قريباً حرمانه لمدة طويلة من اللعب. (البنكية الإنجليزية).

(٢٧) نسبة العجز لا تسمح warrant بإدراجه علي كرسي المقعدين (البنكية الإنجليزية) .

ولقد وجدت أنه ليس من الصعب تصنيف الكلمات التي شغلت موقع الفاعل والمفعول تحت فئات مترابطة، مثل :

(أ) الكلمات التي شغلت موقع الفاعل : فئة التصرفات : إنجاز، عدوان، سلوك، شجار، فئة الموارد : القدرات، المساحات الوفيرة، المساحات المزروعة، السيارات الخردة، فئة المعارف : دليل، معلومات، إدراك، مرجعية علمية، فئة الرسائل: رسالة شكوى، اتهام، إفشاء، فئة المشكلات : البذاءة، العنف، معدل الإصابات، نقص الطعام، المرض، العجز، الواسطة، الممارسات المتعصبة، بطء معدل الاقتصاد، قطع الأشجار.

(ب) الكلمات التي شغلت موقع المفعول به : فئة ردود الأفعال (الإيجابية و السلبية) : النشاط الإضافي، التغير، ارتكاب جريمة، قرار نهائي، مكافأة، توسع، امتداد، تكوين، زيادة، خطة، خطوة، علاج، فئة استهلاك الموارد : تكلفة، نفقة، فقدان لحياة الجنود، الإفراط في الطعام، الضرائب الباهظة، المساحة الصخرية الشاطئية، فئة الرسائل : تعليق، عبارة، اقتراح، وصف، ذكر، اعتذار، تسمية، ترتيب اسم الممثل (الأفيش)، مذكرة، بحث موجز، خطاب جاد، تقريع، فئة تجميع المعارف : اهتمام، مؤتمر، اختبار مسح استبطاني، نقد، إشاعة، تساؤل، استقصاء، محاكمة، فئة حلول المشكلات: مساعدات اقتصادية، عناية مركزة، إرسال للمؤن، استخدام العقاقير، نشر السلام، كسر الحظر، تقليل معدلات الفائدة، فئة الثأر والانتقام : العقاب، العقوبة، الاتهام، مدة الحبس، حظر طويل، الثأر الأمريكي الأكبر، الضربة الوقائية، مقاضاة المجرمين، محاكمة، إعدام. وكما نرى أنه يمكننا أن نضاهي بين بعض فئات الفاعل والمفعول، مثلاً :

فئات المفعول به	فئات الفاعل
ردود الأفعال (الإيجابية والسلبية)	التصرفات
استهلاك الموارد	الموارد
الرسائل	الرسائل
تجميع المعارف	المعارف
حل المشكلات	المشكلات

لكن تلك الفئات المضاهاة كانت قليلاً ما ترد بشكل منتظم، كما في :

(٢٧) إن هذه المنازل القديمة باردة لدرجة تجيز warrant للضيوف ارتداء ملابس حرارية طويلة (البنكية الإنجليزية) (مشكلة ــ حل المشكلة).

(٢٨) إن تشجيع التقدم لا يبرر warrant المساعدات الاقتصادية واسعة المدى (الموارد ــ استهلاك الموارد).

وكذلك وجدت هنا شواهد لتحولات في اقتران فئات الفاعل والمفعول به مع بعضهما بعضاً، مثل اقتران الفعل بفاعل مندرج تحت فئة التصرفات وبمفعول به مباشر مندرج تحت فئة الرسائل، كما في [٢٩] أو فاعل تحت الرسائل ومفعول به تحت ردود الأفعال [٣٠].

(٢٩) كانت العملية مهمة لدرجة بررت warrant كتابة مذكرة عنها في منتصف الليل (البنكية الإنجليزية).

(٣٠) حكايات المشكلات المرضية التي تبدو وكأنها تستلزم warrant التدخل الجراحـــي (البنكية الإنجليزية).

إن " النحو " الذي " يفسر النص في سياقه الحضاري " (هاليداي) ومنوط به الإشارة إلي معاني الفعل warrant إثباتاً ونفياً في سياقها المتضمن أحداثا أو حالات غير عادية ومميزة لدرجة تستلزم رد فعل يتناسب معها، هذا بالإضافة إلي بيان دوافع هؤلاء الذين من المفترض أن يتجاوبوا مع الحدث من حيث الأسباب، والكيفية التي تجعلهم يستخدمون الفعل مثبتاً حيناً ومنفياً حيناً آخر. وهكذا، فإن المتحدث أو الكاتب أو صاحب الرسالة .ـ عند نقل الخطاب ــ يدعي أن ما يقدمه يعد نوعاً من الحدس أو المرجعية، التي أشرت ضمنياً إلي أنواعها، مادتي العلمية : حكومية، قضائية، عسكرية، رياضية، تجارية، علمية وطبية. أو أن يكون استخدام الفعل warrant متضمناً لإشارة دقيقة ــ إذا استخدمه شخص ما في صورته المنفية ــ أن تلك المرجعية، قد تم ادعاؤه بأية حال، وهذا مثل قول الصحفي :

(٣١) إن تشيفروليه بيريته لا تستحق does not warrant كل هذا الاهتمام (البنكية الإنجليزية).

ولقد أظهرت مدونتي اللغوية عن الكتاب البريطانيين والأمريكيين نتائج مختلفة، فمن بين ٢١٠ شاهد، اقترن ٨٠ منها بالفاعل المتكلم. ولقد استخدمت الاقترانات النحوية ما بين: أنا أؤكد I warrant، و سوف أؤكد I'll warrant بفاعلية للتأكيد علي ما يعتقده المرء ولا يملك دليلاً عليه كما في [٣٢ ـــ ٣٣]. ولكنني وجدت في الاقترانات الأخرى المعاني القديمة، يجيز [٣٤] و يضمن [٣٥ ـــ ٣٦].

هذا بالإضافة إلي الشاهد [٣٧] المنتمي إلي بدايات الإنجليزية الحديثة والمتعلق بعلم دراسة أصول الكلمات.

(٣٢) أؤكد لك warrant أنك لن تندم أبداً علي إعطائه المال (توم جونز).

(٣٣) ولكن إلي أين سأذهب إذا طردتني من هنا ؟ وماذا سأفعل " أنا سأؤكد Il warrant لك أنك تعلم إلي أين تذهب وماذا تفعل (جان آير).

(٣٤) لم يسبق لك أن أجزته كواعظ ؟.

(٣٥) أنا أضمن لك warrant أنك من المحتمل أن تجد دودة في كل ثلاث طبقات من التربة، إذا ما نظرت جيداً إلي جذور العشب (والدن).

(٣٦) إن هذه الألواح من أحسن الأنواع، وأنا أستطيع أن أضمن warrant لك أنها ستقاوم المطر والثلج لمائة سنة قائمة (بعيداً عن الحشد المجنون).

(٣٧) باع هذا الرجل الغني زيته إلي التجار وضمن warrant أن كل طن ممتلئ لآخره (ويليام كاكستون، حكايات وخرافات، سوبر، أويان، ألفونس وبوج ١٤٨٤). ولقد أكد لنا هذا الشاهد ـــ إلي حد ما ـــ أننا بصدد التعامل مع الأبعاد التاريخية للمادة العلمية الحقيقية.

٤- خلاصة / الحلول المقترحة :

كان من الممكن تقديم مادة علمية أكثر من تلك التي قدمتها. وفي حقيقة الأمر تعد المادة العلمية كبيرة جداً، حتى أن أي نحو نص مثلها، ربما يتطلب مشاركة فريق كبير من اللغويين في تحليله، وما يمكنني أن أفعله هنا، هو تلخيص الإمكانيات المتاحة وربطها بالقضايا والمشكلات التي عرضت لها في هذه المقالة. إن الفرق الأساسي بين نحو اللغة ونحو النص، هو كما يبدو اهتمامها بظاهرتي الاقتران النحوي والاقتران اللفظي. إن نحو اللغة في حاجة إلي أن يغطي كل الخيارات حتى تلك التي تعد شديدة الندرة في المادة

العلمية الحقيقية مثل : will have been going to have been talking (هاليداي ١٩٨٥، ١٨١) التي تعني : كان سيكون قد تكلم. بل إن حتى صيغة المستقبل التام المستمر (سيكون will have been + اسم الفاعل) النادرة التي لم تظهر في مدونتي اللغوية ولا لمرة واحدة، يجب أن يغطيها نحو الجملة، وعلي الجانب الآخر يبدو نحو النص كخلفية نعرض من خلالها بعض الاختيارات والتراكيب بامتعاض ونعرض لغيرها بارتياح، فربما نجد أن التركيب النحوي الذي تضمنته جملة: ضرب الرجل الكرة، يستحق أن نبرزه في صورة واضحة، غير أننا لا نستطيع أن نفترض أن ذلك يتم بعيداً عن المادة العلمية وما تؤكده لنا.

ولا نستطيع أيضاً أن نسلم به كشكل نحوي مقبول بدون الرجوع للمادة العلمية ــ كما كان عليه الحال في النحو الشكلي (مثلاً تشومسكي ١٩٥٧).

وأنا بالطبع لا أعني أننا علينا استخراج نحو النص من نص ما، مثلما كانت عليه محاولات نحو النص الشكلي (فان دايك / ايوا / بيتوفي، ريزر، ١٩٧٢) ولكننا عند اجتهادنا واتخاذنا التدابير اللازمة، نستطيع أن نستخرج نحو النص من التناص. ففي بعض المراحل من المادة العلمية، سوف نعمل بالقرب من السطح حيث تزداد درجة الدقة اللغوية، وذلك بالثبات التقريبي لمعظم الخيارات، مثلما هي الحال في : ستندهش من عدد الناس اللذين ... وهو ما ساقه لنا سينكلير (١٩٩٨، ٨٣) نقلاً عن البنكية الإنجليزية. ولكننا في الغالب سنتعامل مع فئات الكلام التفاعلية التي تتبع ذلك النوع الذي وضحناه من قبل بفئات الفاعل والمفعول به المصاحبة للفعل warrant، وعلي عمق أكبر سنتعامل مع تلك الفئات التي تعكس سياقات حضارية، كتلك التي قدمها لنا هاليداي.

ولكي لا نتعسف في تعاملنا مع المادة العلمية، يجب أن تكون المصطلحات الوصفية التي نستخدمها علي قدر مناسب من الصفة العلمية، ففي المراحل الأولي لا يمكننا أن نعرف المصطلحات التي سنستعملها بكثرة، فبعض المصطلحات في كل من النحو التقليدي والشكلي سنحتاجها بالطبع مثل تلك المصطلحات : " الاسم " و " الفعل ". ولكن بما أن هذين المصطلحين ينتميان إلي نحو اللغة، يجب أن يتم توصيفهم ليتناسبوا مع نحو النص (كما تقدم عند بوجراند ١٩٩٧). ولابد أن تراعي تلك التوصيفات كلاً من المبني

والوظيفة والمعني، ذلك لأن تلك العوامل الثلاثة يمكن توضيحها في المادة العلمية الحقيقية. (بوجراند ٢٠٠١).

ونحن في حاجة أيضاً إلي المصطلحات غير التطبيقية، وذلك حتى تشاركنا وتفهمنا شرائح كبيرة من مستخدمي اللغة كتلك التي استخدمت في مدونتنا اللغوية وهؤلاء المشاركون ليسوا فقط اللغويين أصحاب الطلاقة في استخدام المصطلحات التطبيقية، بل إنهم أيضاً أولئك المؤلفون، والمتحدثون الرسميون، والصحفيون، والشخصيات الإعلامية، والقادة السياسيون، وهكذا، وسنرحب بهم كمشاركين لأنهم سيصنعون ذلك التوازن بين ما نعجز عنه، وما تنحاز إليه، خاصة إذا ما اعتمدنا علي الحدس.

وعلاوة علي ذلك، يعد مصطلح " نحو النص " ذاته بديلاً غير تطبيقي لآخر أكثر دقة ولكنه مزعج إلي حد ما، ألا وهو التناص المعجم نحوي. وهو ما سأشرح مضمونه بإيجاز. إن النص المفرد لا يمكن أن يكون له نحوه الخاص، وذلك لأنه في ذلك الحين لن يتم استعماله في الاتصال ما بين الناس. فالنص فقط عرض بعض الاختيارات والتراكيب القائمة في نحو التناص المنتمي له. وهنا نتفق جزئياً مع نظريات نحو النص القديمة التي اعتقدت أن النحو أكثر تجريداً من النص، ولكننا نختلف بحدة في أن نجعل من النحو المتعلق بمدونة لغوية كبيرة لنصوص حقيقية تناصاً قائماً بذاته. إن التناص وحدة مفتوحة ـ كما أشرت من قبل ـ ولا يمكن أن يتخذ نحواً بمفرده، ولكنه كلما كبر حجمه وتوازنت أبعاده، كلما زادت احتمالية تمثيله لنحو اللغة. ولا يمكن الوصول لمرحلة مساواته بالنحو، كما أنه لا يمكن لمتحدث ما أن " يعرف لغته بشكل تام " (نموذج تشومسكي). لكن النحو الخاص بالمدونة اللغوية الكبيرة، يمكن أن يقارب تلك المعرفة النحوية للمتحدثين والكتاب منتجي النص، وهؤلاء الذين تلقوا النص سماعاً أو قراءة بالنص، هذا بالإضافة إلي معرفة اللغويين الذين يدرسون مدونة لغوية ما بالنحو، وبدلاً من إدعاء المرجعية الكاملة والحاسمة بفضل التدريب الأكاديمي والوضع فوق البشري الذي أثمرت عنه قوى الاستبطان(وهو ما يبدو متضمناً في المنهج التوليدي) يمكننا فقط أن ندعي تلك المرجعية المحدودة والمؤقتة التي تثمر عنها الخبرة العميقة في وصف أجزاء كبيرة من المادة

العلمية، وبدلاً من وضع النصوص المجردة في " سياقات اتصال، يعاد تشكيلها نظرياً " (فان دايك) نضعها في سياقات حقيقية تجريبية مُوضِحَة لها.

وفوق كل ذلك، لابد أن نعتمد علي النحو المعجمي؛ ذلك لأن المادة العلمية التي تشملها المدونة، نستطيع أيضاً أن تفكك التقسيمات الثنائية التي سادت لفترات طويلة والتي ترجع إلي عهد تشومسكي وسوسير وهنري سويت أيضاً، وقد نشأت ما بين النحو كحقل للنظام، والمعجم كحقل للاعتلال والتمييز ما بين النحو والمعجم من خلال وضع ذلك الحد بينهم، هو ببساطة إجراء غير عملي من وجهة نظر وصفية متفتحة لمدونة لغوية، وذلك لأنه يجبرنا علي وضع قيود علي كل منهما، تلك القيود لا تكون من حين لآخر، ولكنها تكون نظامية (فرانسيس، ١٩٩٣) إن في فصلنا للاثنين رفض غير مبرر لمخزون كبير من المعلومات / الكتابات التي جمعت ما بين اللغة والنص.

إن العلاقة بين التناص واللغة بأكملها في العموم الأعلى والعلاقة أيضا بين التناص والنص المفرد في العموم الأقل لهي حقاً علاقة صعبة، ولكن صعوبتها تختلف عن تلك القائمة بين " جمل لايونز النظامية والنصية " التي أشرنا إليها في الجزء الأول. فنحن عندما نتعامل مع مادة المدونة نكون بذلك في خضم تعاملنا مع الصعوبة الطبيعية، التي يتم التغلب عليها بمعالجتها في مستوي الخطاب، عن طريق التفاعل بين الأنماط المتشابهة من المقيدات (روميل هارت، ميك سليلاند وآخرون ١٩٨٦، كينتش ١٩٩٨) تلك المُعالجات بعينها في صقل التحليلات التي يجريها اللغويون بوصفهم أعضاء في المجتمـــع الخطابي. ولذلك فحينما نفترض أن النص وحدة مجردة يتضمنها الخطـــاب (فان دايك ١٩٧٧) نكون بذلك قد أقدمنا علي التعامل مع الصعوبة غير الطبيعية، التي قطعاً تجلب خسارة مفادها الصعوبة الطبيعية للخطاب الحقيقي الذي أوضحت أبعاده من ذي قبل.

هذه التوقعات تبين بوضوح لماذا المجرى الجديد لنحو النص، يجب أن يكون معرفاً بدقة ومؤهلاً أكثر مما كان معطى في الماضي بدون شك مفاهيمنا عن " النحو " ونظراً لبعض التنقيحات الثاقبة التي سوف تحقق لها أكثر قرباً مما كان صحيحاً في الماضي. وسوف نكون عندئذ في وضع أفضل لتطبيق القواعد علي نصوص حقيقية

لمجموعة من الأغراض، ومنها تعليم وتعلم اللغة بصفة عامة، والقواعد على الخصوص سوف تبرز بالتأكيد.

مكتبة لسان العرب
lisanarb.com

"إسهام العلماء المسلمين في الحضارة العالمية"

٢٣٥٨٤٥٢